

# الصمت الذي كان

فجأة ظهر «الشيخ» \* وأعوانه كأنما انبثقوا من فراغ مقبلين من بعيد، وأذكر أن أصوات الصغار وهم يلعبون كانت تصلني متقطعة تحملها هبات صغيرة إلي، بالرغم من المسافة بيني وبين الدار كان رأس «الشيخ» ينخفض ويعلو مع كل خطوة وهو يقترب، تأملت حركته الرتيبة ومع استغراقي في التأمل بدا لي بتشجيع من توهم بصري، كأنه يدبر عني، فتوقعت أن يصغر إلى أن يتلاشى!.

لكنه كان يكبر مع كل خطوة، وشيئا فشيئا بدأت تقاسيم وجهه تلوح، كانت كما عهدتها دائما قاطعة، أكسبها الغم والقسوة مسحة جنون، تظهر من خلالها روح قلقة متعبة أرهقها الإعراض والغفلة عن الآخرة.. ثم بدأت تصلني أصوات مكتومة لحديث متقطع بينه وبين «جلول» و«الشاوي»، كان بلاشك يحاول إخفاءه إذ لم يلتفت إلى أي منهما، ولم يلوح بذراعيه ولم يهدد بسبابته رغم تمكن تلك العادة السيئة منه!.

ثم سمعت أصوات الصغار مرة أخرى، وفكرت أن الريح كانت تعابثني لتخفف من قسوة الصمت ومرارة الحزن علي، وابتسمت لهذا الخاطر.

يبدو أن ابتسامتي كانت واضحة، فقد ظن

كان كل شيء كالعادة صامتا مطبق الصمت إلا من حفيف خافت يعلن نسمات تفيض بها السماء فيض كريم، النخلات بهاماتها المعرشة تتمايل بهدوء الحكماء وتكرار الذاكرين، كما تتمايل باكيات فقيداً أجرضهن الصبر، وأتعبهن الحزن.. وأنا هناك فوق تلك الصخرة أجلس متأملاً متذكراً مسبحاً منتظراً حلول العشيّة لأحمل نفسي وهمومي والسنين التي تشغل كاهلي الأعجف وألحق بالمسجد مستمطرا رحمة الله رب العالمين.

ميمون الخزرج  
الجزائر



«الشيخ» - وكان قد وصل - أنني ابتسمت له، وظن أنني قلت شيئاً على سبيل الترحيب.. فتنحنح ثم اقترب أكثر، لدرجة أنني سمعت لهاته ورأيت صدره الضخم المترهل يعلو ويهبط، ويفج وهو ينزف هواء! ثم قال وقد لاحظت في عينيه لمعة اعتذار بعيدة كالنجم المنطفي.

«آسف! لقد تأكد كل شيء، جاءتنا برقية من السلطات في الموضوع».

أدخل يده في جوفه وأخرج مظروفا صغيراً ولوح به مؤكداً كلامه باهتزازات متكررة.

أما أنا فقد كنت أعلم كل شيء.. هذه الصخرة، وهذا التل، وهذه الواحة بنخلها الكثير والجميل لن تصمد أمامهم.. كنت أعلم أنهم لن يتراجعوا عن فكرة إقامة مشروعاتهم هنا، في هذا المكان بالضبط، كان ذلك قدراً مكتوباً لم أتيقنه يقيناً، بل حدسته وتوقعته، وكنت منذ انتشار الإشاعة أقول لنفسي: «من كل هذه الدنيا الشاسعة، من بحر الظلمات إلى بحر الوقواق لن يعجبهم إلا هذا المكان.. ولا بد أن يأتوا ليقطعوا النخل، ويهدموا البيت، ثم يغرقوا كل شيء بعد أن يحبسوا الماء عن التسرب من خندق «بني مصران».

ولأنني كنت أعلم كل شيء لم أفاجأ، بقيت هادئاً، لم أصرخ، لم ألوح بعصاي، ولم أكشر، بل أنصت مرة أخرى إلى صوت الصغار الذي جاءني مع الريح..

لعله كان خائفاً، فهم يقولون: إنني عند ما أغضب أفقد السيطرة على نفسي، ولذلك جاء «بالشاوي» و«جلول» معه، كانت ملامحهما مسطحة، لا أذكر عنهما إلا أنهما كانا من الذين «يذكرون» غرس النخل ويجنون العذوق، حين الموسم بمهارة لا تضاهيها إلا مهارة اللصوص..

كانا ينظران إلى كل شيء شزراً، وخيل إلي وأنا أرمقهما من بين جفوني المتقرحة من ملوحة العرق أنهما يلحظان حركات «الشيخ» بخشوع، ويتنفسان من بقايا نزييف صدره.. ولعل خاطراً، في سياق الإحساس بضرورة المواساة خامر «الشاوي» فقد نحم ونفخ ثم بسط كفه وهو يرفعها قائلاً في يأس العاجز:

«قرارات الحكومة لا أحد يقدر أن يردّها..»  
ويبدو أن صمتي وهذوئي التام ترجم إلى احتجاج.. فقد استدرك في نبرة اعتذار:

- «طبعاً، الله يقدر.. لكن...»  
لحس شفته السفلى الغليظة الزرقاء.. تمتم أحرفاً غير مفهومة ولم يستطع أن يكمل، دخل في حالة ارتباك فبدأ ضئيلاً منكمشاً رغم جثته الضخمة، وتدخل «جلول» محولاً مجرى الكلام:

- «سيعوضونكم عن كل شيء، الحكومة قوية وغنية، دام فضلك، كل منطقة «الذيب» شمال «بني مصران» ستصير ملكاً للمتضررين...».

قاطعه «الشيخ» مصححاً بحزم وازدراء:

- «المستفيدين يا حمار...»  
لم تسقط هذه الإهانة في قلب «جلول» مباشرة كالطعنة الخطأ الغادرة، كما قد يتبادر إلى الذهن، لا بل لم تطرف له عين، بل لم يحدث أي شيء مهما كان صغيراً يدل على أنه تأثر بتدخل «الشيخ» اللفظ، فقد كرر مستأنفاً كمن أخطأ وصح لنفسه:

- «ستصير ملكاً للمستفيدين...»  
أعاد «الشيخ» المظروف إلى جوفه، ثم ابتعد خطوة إلى الوراء.. وجاءني صوت الصغار مع الريح وهذه المرة امتزج مع قول «الشيخ»:

- «آخر أجل لإخلاء المنطقة نهاية الشهر المقبل، ستبدأ الأعمال بعد ذلك مباشرة...» خطر في بالي أن المؤذن تأخر اليوم عن مواعده.. وتخللت المسجد يهدم.. والبيت والباحة وكل ما بنيته من أحجار عمري حجراً حجراً.. وأنا في هذه السن، كيف سيبدأ كل شيء من جديد؟ وماذا سيفعلون بالمقبرة؟ كانت هذه الخواطر وغيرها خاطفة.. إذ مرة أخرى مع استغراقي في التأمل بدا لي «الشيخ» بتشجيع من توهم بصري، كأنه يقبل إليّ فتوقعت أن يكبر حتى يسد الأفق..

الآن.. بعد كل هذا الزمن.. لم يعد كل شيء صامتاً.. كما كان، وكبر الصغار وتفرقوا ولم تعد الريح تعابثني.. ولم أعد أسمع شيئاً!

\* وظيفة حكومية تعادل منصب «العمدة» أو ما يشبهها. والشيخ لقب من يتولاها.